سلسلة حكايات قرآنية (٤)

كُنُوزُ قَارُونَ

إعداد

عاطف عبد الرشيد

obeikandl.com

obeikandl.com

قارونُ رجلٌ من الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ بنعمةِ المالِ، وزادَ ثراؤُهُ حتَّى صَارَ أغنى أغنياءِ زمانِهِ، ولمَّا وصفَ اللهُ هَذا الثَّراءَ الفَاحشَ لَمْ يتحدَّث عن مِقدار هَذا المَالِ، وكثرةِ هذهِ الكُنوزِ، ولكنَّهُ أشارَ فقَطْ إلى مَفاتيحِ الخزائنِ، فقالَ تعالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]. فإذا كانت هذه هي المَفاتيحَ، فكيفَ بالخزائنِ؟! وكيف بما فيها من كنوزٍ وأموالٍ..؟! والله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يكرَهُ لعبادِهِ الثَّراءَ والغِنى، ولكنَّهُ يرضاهُ لهُمْ معَ الشُّكرِ، والحمدِ، والبذلِ والعطاءِ علَى مَن حَرمَهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه النعمةَ.. أمَّا مَنْ يَبخلُ ويَكفرُ ويَجحَدُ نعمةَ اللهِ عليهِ، فهَذا الذي يَستوجبُ غَضبَ اللهِ وعقابَهُ، وهَذا ما حدثَ مع قارونَ، فكان جزاؤُهُ أن خسفَ اللهُ به وبدارِهِ الأرضَ. فهيا معًا نتعرَّفْ على قصَّةِ قَارونَ وكُنوزِهِ، وما فعلَهُ مع قَومِهِ، وكيفَ كان مصيرُه الأليمُ؟

الثَّراءُ الكَبيرُ

إذَا أرادَ النَّاسُ أنْ يَصِفُوا أحدًا بالغِنَى والثَّراءِ، قالُوا على سبيل المجازِ: عندهُ مَالُ قَارونَ. فقَدْ صارَ قارونُ مثلًا لكلِّ غَنِيٍّ مهمَا بلغَ غِنَاهُ ومالُهُ.

كانَ قارونُ ابن عمِّ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ، فهو قَارونُ ابنُ يَصهب بن قَاهثٍ، مِن بني إسرَائيلَ، جَمعَ ثروةً ماليةً كبيرةً، قالَ البعضُ: إنَّهُ كانَ يحوِّلُ النحاسَ إلى ذَهبٍ بِطُرُقٍ علميَّةٍ كيميائيَّةٍ، وقيلَ: إنَّهُ كانَ رجُلًا ظَالمًا، ورثَ عن أبيهِ ضِيَاعًا واسِعةً وأموالًا كثيرَةً، فاستغلَّها في تنميةِ ثروتِهِ، وقامَ بكثيرٍ من الأعمالِ غيرِ المَشروعةِ، كمَا كانَ صَديقًا لفرعونَ، يَستغلُّ هَذهِ الصَداقةَ في نَماءِ ثروتِهِ، ويَأخذُ الكثيرَ من التَّسهيلاتِ التي تتيحُهَا مثل هذهِ الصداقةِ، فتكُون هذهِ التَّسهِيلاتُ سَببًا في نماءِ الثروةِ بشكلٍ أو بآخرَ، كلُّ هذه الأعمالِ التي مَارَسَها قارونُ إلى جانبِ بُخْلِهِ الشَّدِيدِ هي التي عَملَتْ على كثرةِ ثروتِهِ ونمائِهَا وزيادتِهَا بشكلٍ كبيرٍ.

وإذَا كانَ النَّاسُ قَدِ اختلفُوا في السبب الذي ورَاءَ ثروتِهِ الكَبيرةِ، فإنَّهم اتَّفقُوا على أنَّ ثروتَهُ لم يكُنْ لدَى أحد من النَّاسِ مثلهَا آنذاك غيرَ فرعونَ وهامانَ، فكانَ الثلاثةُ أغنى الأغنياءِ في عَصرِهم، ولعلَّ هذا الثَّراءَ الذي كانَ عندَ قَارونَ هو الذي جعلَهُ يقفُ إلى جانبِ فرعونَ ضدَّ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ لأنَّهُ من طبقتِهِ، طَبقةِ الأغنياءِ، أمَّا مُوسَى فهوَ من الطبقةِ الفقيرةِ الضعيفةِ، التي نظَر إليها قارونُ ـ رغم أنَّهُ منهُمْ ـ باحتقارٍ واستهزاءٍ.

وقَدْ وصفَ اللهُ ـ سُبحانَهُ ـ ثَراءَ قارونَ بقولهِ تعالَى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

وقد كانَتْ هذه المفاتيحُ من الجلودِ، وكانَتْ تُحملُ على ستينَ بغلًا، ويصعبُ حملُها على مجموعةٍ من الرِّجالِ الأشدَّاءِ، وقَدْ كانَ لدى قَارونَ عددٌ عظيمٌ من الخيلِ والمركباتِ والرِّجالِ والحرسِ، وكانَتْ مركباتُهُ مُطعمةً بالفضةِ والذهبِ، وكانَتْ سُروجُ خيلِهِ مَصنوعةً من الجلدِ المزينِ بالذهبِ والفضةِ والبرونزِ والنُّحاسِ، وكانَ قصرُهُ يُضاهِي

قصرَ فرعونَ، أعمدتُهُ من الرُّخامِ المحلَّى بالذهبِ، ونوافذُه من خشبِ الصَّندلِ المعطَّرِ، فإذَا مرَّ الهواءُ من النافذةِ حملَ العُطورَ إلى أهلِ القصرِ بالدَّاخلِ.

ورغمَ هَذا الثَّراءِ العَريضِ كانَ قارونُ رجلًا بخيلًا، شديدَ البخلِ، يجهلُ فضيلةَ الإحسانِ للفقراءِ، ولا يعرفُ قيمةَ العطفِ على المسَاكينِ والمحتاجينَ، فقَدْ كانَ قَاسِيَ القَلبِ، رَاكدَ المشاعرِ، متكبِّرًا، مَغرورًا، أعطاهُ مالُهُ إحسَاسًا بالكبرياءِ والعظمةِ، وملأ قلبَهُ بالفرحةِ الشديدةِ، فكانَ يحسُّ بالقوةِ والغنى والنفوذِ والأمنِ والفرحِ، ولا يفكِّرُ في الموتِ لحظةً واحدةً، ويظنُّ أنَّـهُ خَالدٌ في الدنيَا، وأنَّ مالَهُ سَيَخلدُ معهُ.

وكانَ يكرهُ مُوسَى - عَلَيهِ السَّلامُ -، ويدَّعي دَائمًا أنَّهُ أفضلُ منهُ، ويكرهُ حديثَهُ عن البعثِ والحسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ. وحملَهُ هذا الكُرهُ على التكذيبِ بهذه الأُمورِ الغيبيَّةِ، فلَمْ يُؤمنْ بيومِ القيامةِ، أو البعثِ، وصَارَ هدفُه الأعلَى في الحياةِ البَحثَ عن المتعةِ والجريَ وراءَ اللَّـذّةِ، فكانَ يأكلُ أفضلَ الطَّعامِ، وأغلاهُ ثَمنًا، ويرتدِي أفخرَ الثِّيابِ وأجمَلَهَا، ويستغلُّ فقراءَ قومِهِ - من بني إسرائيلَ - في خدمتِهِ، وفي

الأعمالِ الشَّاقةِ حتَّى يَجْهَدَهُم التعبُ، ورغمَ ذلكَ لا يؤدِّي لهُمْ حقَّهم، ولا يُعطيهم أجرَهُم، وإنَّما يظلمُهُمْ، ويعتدِي عليهِمْ، وكانَ لا يعنيه أنْ تفسدَ الحياةُ ما دامَ هذا يزيدُ في ثروتِهِ، وكلَّما زادَتْ ثروتُهُ زادَ بخلُهُ، وكلَّما أعطاهُ اللهُ من نعمِهِ زادَتْ قسوتُهُ وشدَّتُهُ وشرُورُهُ.

الزينةُ الخادِعَةُ

كانَ موكبُ قارونَ أشهرَ المواكبِ عَظمةً وبهاءً بعدَ مَوكبِ فرعونَ، وكانَ إذَا خرجَ بهِ، وسَارَ تحتَ الشَّمسِ، تَلألأَ الذَّهبُ والياقوتُ والنُّحاسُ تحتَ أشعَّةِ الشمسِ، وخَطِفَ وَهْجُ الجواهرِ أبصارَ النَّاسِ، وفَتَنَهُمْ فتنةً عظيمةً.

وذاتَ يومٍ.. خرجَ موكبُ قارونَ يمرُّ في شَوارعِ المدينةِ، فوقفَ النَّاسُ على الجانبينِ يُشاهدونَ هَذا الموكبَ العَظيمَ، ويتأمَّلونَ قارون الذي يَجلسُ وسَطَ مركبة أَعمدتُهَا منَ الذَّهبِ، وستائرُهَا من الحريرِ، تجرُّهَا خُيُولٌ سروجُهَا وأدواتُهَا مُرصَّعةٌ بالياقوتِ والزبرجدِ والماسِ، وحولَهَا الحرسُ من كلِّ جانبٍ...

وأمامَ هذه الزِّينةِ انخدعَ ضعَافُ الإيمانِ، وقالُوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

وبدأَ الشَّكُّ يدخلُ في قلوبِ بعض المؤمنينَ من بني إسرائيلَ، وتمنَّوْا زينةَ الحياةِ الدنيَا، واعتقدَ بعضُهُمْ أنَّ قارونَ أفضلُ من مُوسَى، وأنَّ اللهَ لو كانَ يُحبُّ مُوسَى حقًّا لأعطاهُ مثل ما أعطى ابنَ عمِّه قارُون.

وكانَ هُناكَ رِجالٌ مؤمنونَ حقًّا، لا ينخدعُونَ بالزينةِ الباطلةِ، ويعلمونَ أنَّ ذلكَ فتنةٌ، وأنَّ ما عندَ الله خيرٌ وأبقى، فقالُوا لهؤلاءِ: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وبيَّنُوا لهُمْ ألَّا يَحكُمُوا على الظَّاهِرِ، فليسَ قارونُ عظيمَ الحَظِّ كمَا يظنُّونَ، إنَّما هُوَ مخلُوقٌ تَعِسٌ، يمتحنُهُ اللهُ بالكنوزِ، فلَمْ ينجحْ في هذا الامتحانِ، بَلْ رسبَ فيهِ لأنَّهُ لا يُخرجُ زكاةَ مالهِ، ولا يتصدَّقُ على الفقراءِ، وقد كَفرَ باللهِ، وكذَّبَ بالبعثِ والحسابِ، وسَوف يُعاقبُه اللهُ على ذلكَ أشدَّ العقابِ.

ولكنَّ المنافقينَ وضعافَ الإيمانِ لم يستمعُوا لهذا الكَلامِ،

وصَارُوا يتمنَّوْنَ ما فيه قَارونُ، وصَارَ قارونُ فتنةً كَبيرةً على المؤمنينَ وعلى النَّاسِ جَميعًا.

النَّصيحةُ الغَاليةُ

لمَّا رأى مُوسى - عَلَيهِ السَّلامُ - أنَّ قارونَ وكُنوزَهُ فتنةٌ كبيرةٌ، سَوفَ تُؤدِّي إلى افتِتانِ النَّاسِ وكفرِهِمْ، أرسلَ إليه مَنْ ينصحُهُ، ويذكِّرهُ باللهِ تباركَ وتعالَى، ويبيِّنُ لهُ أنَّ مالَهُ ذلكَ نعمةٌ من اللهِ عليهِ، يجبُ أن يتَّقيَ اللهَ فيهَا، ولا يفرحَ بكثرةِ مالِهِ، لأنَّهُ اختبارٌ وابتلاءٌ، ولكي ينجحَ في ذلكَ الاختبارِ لابدَّ أن يتصدَّقَ من مالِهِ على الفقراءِ والمحتاجينَ من قومِهِ، فهذَا خيرٌ لهُ في دنياهُ وآخرتِهِ، قالَ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧].

ولكنَّ قَارونَ لم يَستمعْ لهذهِ النَّصيحةِ الغَاليةِ، وغضبَ غَضبًا شَديدًا، وثَارَ عَلى مَن عندَهُ، وقالَ لهُمْ في عُنفٍ

وتكبُّرٍ وغرورٍ: إنَّ هذَا المالَ حَصلتُ عليهِ بذكائِي، وجَمعتُ كنوزهُ بعلمِي وقُدرتِي، ولولا عِلمِي وعَقلي لكنتُ فقيرًا مثلَكُمْ؛ وليسَ لأحدٍ حَقٌّ في مالِي هذَا، فهو ملكِي وحدِي، لأنِّي أنَا الذي جَمعتُه وحدِي..

ثُمَّ قامَ بطردِهِمْ وهم يَشعرونَ بالأسفِ والحزنِ، وقَدْ أدركُوا أنَّ قارونَ لم يَعُدْ قَابلًا للنصيحةِ، لقَدِ اغترَّ بِمالهِ، وشَعر أنَّ فيهِ القوةَ، وأنَّـهُ يستطيعُ أنْ يُحقِّقَ بهِ ما لا يُحقِّقهُ أحدٌ غيرُهُ، كمَا أنَّـهُ بَخِلَ على الفقراءِ والمساكينِ. فذهبُوا إلى مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ وأخبروهُ بما فعلَهُ معهُمْ قَارونُ، فأخبرَهُمْ أن كبرَهُ وغرورَهُ وبخلَهُ ذلكَ سَيكونُ سَببًا في هلاكِهِ، ويجبُ عليهِمْ ألَّا يفتَتِنُوا بمَا هو فيهِ من نعمٍ ومالٍ، لأنَّ هذَا المالَ اختبارٌ مِنَ اللهِ، ويجبُ عليهِمْ أَنْ يحمدُوا اللهَ، ويلتزِمُوا بخُلُقِ الرِّضَا والقناعةِ، فهي خيرٌ لهُمْ من مالِ الدُّنْيَا ومتاعِهَا.

المؤامرةُ الشيطانيةُ

أَحسَّ قَارونُ أنَّ دَعوةَ مُوسَى تُهَدِّدُ مُلكَهُ وثراءَهُ ونفوذَهُ، فراحَ يُفكِّرُ كيفَ يتخلَّصُ مِن مُوسَى، ويَعملُ عَلى فشلِ

دعوتِهِ، وتفرِقةِ النَّاسِ من حولِهِ، فوضعَ يدَهُ في يَدِ فرعونَ وهامانَ، وفوقَ أيديهم يدُ الشَّيطانِ، وراحَ كلُّ واحدٍ منهُمْ يُفكِّرُ في القضاءِ على مُوسَى وأتباعِه، وإطفاءِ نُورِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، وذلكَ لأنَّ هدفَهُمْ واحدٌ، جَمَعَهم حبُّ الدنيَا، وحبُّ المُلكِ والوِزارةِ والمالِ، فوجدُوا أنَّ مصلحتَهُمْ تقتَضي التَّعاونَ ضدَّ مُوسَى ودعوتِه، تَعاونًا على الإثمِ والعدوانِ، فهدَّدَ فرعونُ بأنَّـهُ سيأمرُ بقتلِ الأبناءِ والرِّجالِ، واستحياءِ النِّساءِ، وهدَّدَ هامانُ بأنَّـهُ سيُذيقُ أتباعَ مُوسَى ألوانًا شتَّى من العذابِ والسُّخرةِ والإهانةِ والتضييقِ عَليهم.

ولكنَّ قارونَ لم يتَّجه بتفكيرِهِ إلى إيذاءِ بني إسرَائيلَ مثل فِرعَونَ وهَامانَ، ولكنَّه ـ وإن رأَى رأيَهُمْ ـ كانَ يُفكِّرُ في إيذاءِ مُوسَى نَفسِه، رَغْمَ كَونِه ابنَ عمِّه، إذْ رأَى أنَّ أفضلَ شَيءٍ هو القضاءُ عَلى مُوسَى نَفسِه، وليسَ ذلكَ بقتلِهِ، وإنَّما بالقضاءِ على دعوتِهِ، وذلكَ يكونُ بنشرِ الفحشاءِ عنهُ، وفَضحِهِ ولو بالبَاطِلِ؛ فأمَرَ أحدَ أتباعِهِ أنْ يَأتِيَ إليهِ بامرأةٍ معروفةٍ بالبَغي، ومَشهُورٍ عنها الفُجُورُ والفَاحِشَةُ، فجاءَهُ بهَا، فأعطاهَا قارونُ مالًا وذهبًا كثيرًا، وطلبَ منهَا في مُقابل

ذلكَ أن تذهبَ إلى مجلسِ مُوسَى، أمامَ أتباعِهِ وقومِهِ، وهو يتحدَّثُ مَعهم عن اللهِ، ويعلِّمُهُم شَرائعَ الدِّينِ، وتقفَ وسْطَ النَّاس وتدَّعيَ أنَّ مُوسَى فعلَ معهَا الفَاحِشَةَ بالليلِ. فيفتضحُ بذلكَ أمرُهُ، وينفضُّ من حولِهِ الناسُ، ولا يصدِّقُهُ أحدٌ فيمَا يقولُ، وتموتُ بذلكَ دعوتُهُ، وتنتهي حُجَّتُهُ ورسالتهُ، ويستريحُ قارونُ وأتباعُهُ من ذلكَ.

وبالفعلِ أخذتِ المرأةُ المالَ، وذهبتْ حيثُ يَجلسُ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ وادَّعتْ أنَّهُ فَعَلَ الفاحشةَ معهَا أمامَ النَّاسِ جَميعًا، فلمَّا سمعَ مُوسَى ادعاءَهَا، واجهَهَا قَائلًا: أنا فعلتُ ذلكَ؟! فقالَتْ في تبجُّحٍ: نعم، إنَّك فعلتَ بي كذَا وكذَا (أي: زنيتَ بِي). وهُنَا ارتعدَ مُوسَى من هولِ المُفاجَأةِ، إنَّـهُ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ الحَييُّ الطَّاهرُ العَفيفُ، رَسُولُ اللهِ ونبيُّه، كيفَ يوجَّهُ إليهِ هذا الاتِّهامُ الفَظيعُ؟!

فقامَ في الحالِ، وصلَّى ركعتينِ، ودَعَا ربَّه أنْ يكشفَ الحقَّ أمامَ النَّاسِ، ثُمَّ أقبلَ على المرأةِ، فاستحلفَهَا باللهِ إن كانَتْ صَادقةً فيمَا تقُولُ. فقالَتْ: واللهِ يا نبيَّ اللهِ، إنَّكَ لأطهرُ الناسِ، وما فعلتَ مَعي شَيئًا. فسألَهَا: إذًا مَا حملكِ عَلى

هذا؟ فقالَتْ: إنَّ قارونَ هو الذي أَمرني أن أفعلَ ذلكَ، وأعطانِي مالًا وذهبًا. ثم راحَتْ تستغفرُ اللهَ، وتتوبُ إليهِ، فسجدَ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ شُكرًا للهِ على إظهَارِ براءتِهِ أمامَ النَّاسِ جَميعًا، وعرفَ الجميعُ أنَّ قارونَ هو الذي دبَّرَ هذه المُؤامَرةَ الشيطَانيَّةَ حِقدًا وحَسدًا على مُوسَى، وظَهَرتْ أمامَهُمْ براءةُ مُوسَى مثلَ شمسِ النَّهارِ.

خَسفٌ وَعذابٌ

بعدمَا ظَهرتْ براءةُ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ، جَلسَ مع المؤمنينَ من قومِهِ، يحدِّثُهم عن دينِ اللهِ، وشريعَتِهِ، وأوامرِهِ ونواهيهِ، ويعلِّمُهمُ الأحكامَ والآدابَ الرَّفيعةَ، وينهَاهم عن الفحشاءِ والمنكرِ..

وأَثناءَ ذلكَ مرَّ قارونُ في زينتِهِ وموكبِهِ الكَبيرِ، حولَهُ الحرسُ والحاشيةُ، والجواهرُ والنُّحاسُ يتلألأُ تحتَ أشعةِ الشَّمسِ، فيَبْهَرُ الأبصارَ، ويَخطَفُ العيونَ.. فلمَّا رآهُ النَّاسُ انصرفَتْ وجوهُ كثيرٍ منهُمْ، ينظرونَ إلى قارونَ وزينتهِ، ويُعجبونَ بذلك، فنادَى مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ عَلى قارونَ، فتوقَّفَ

الموكبُ، ونظرَ قارونُ من دَاخلِ المركبةِ الفخمةِ إلى مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ، فسألَهُ مُوسَى عمَّا فعلَهُ مع المرأةِ البغيِّ، وعَن سببِ ذلكَ، فاعترفَ قارونُ بأنَّهُ فعلَ ذلكَ بالفعلِ، ثُمَّ قالَ: يا مُوسَى، أَمَا لئِن كنتَ فُضِّلتَ عليَّ بالنبوةِ، فقد فُضلتُ عليكَ بالمالِ، ولئِن شئتَ لتَخْرُجَنَّ فلتدعُوَنَّ عليَّ ولأدعُوَنَّ عليكَ.

فخرجَ مُوسَى وخرجَ قارونُ في قومِهِ، فقالَ لهُ مُوسَى: تَدعو أو أَدعو أَنَا؟ قالَ: أدعو أنا. فدعَا قارونُ، فلم يُجَبْ لهُ في مُوسَى، فقالَ مُوسَى: أَدعو؟ قالَ: نعم، فرفعَ مُوسَى يديهِ إلى اللهِ تعالَى، وقالَ: اللهمَّ مُرِ الأرضَ فلتطعنِي اليومَ. فأوحى اللهُ إليهِ: إنِّي قد أمرتُ الأرضَ أن تُطيعَكَ فيهِ، فاؤْمُرهَا بما شِئْتَ.

فقالَ مُوسَى: يَا أرضُ، خُذيهِمْ. فأخذتهُمْ إلى أقدامِهِمْ، ثُمَّ قالَ: خُذيهِمْ. فأخذَتْهُمْ إلى رُكبِهِمْ. ثُمَّ إلى مَناكِبِهِمْ. ثُمَّ قالَ: أَقبلي بكنوزِهِمْ وأموالِهِمْ، فأقبلتِ الأرض بهَا حتَّى نظرُوا إليهَا، ثُمَّ أشارَ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ بيدِهِ، فقالَ: اذهبُوا بني لاوي. فاستوتْ بهم الأرضُ، وخسفَ اللهُ بِهِمْ إلى الأرضِ السابعةِ، فهم يتجَلجَلُونَ فيهَا إلى يومِ القيامةِ،

قالَ تعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

عِبرةٌ وعِظةٌ

شاهدَ بنو إسرائيلَ خَسْفَ قارونَ وقصرِهِ وحرسِهِ وأموالِهِ بأعينِهِمْ، ورأَوُا الأرضَ وهي تَتزلزلُ بِهِمْ، تتشقَّقُ وتتَّسِعُ الشُّقوقُ فيهَا، ونظرُوا إلى قَارونَ وهو يَصرخُ ويستدعِي الحَرس والجندَ والأتباعَ، وعاينُوه وهو يغوصُ في الأرضِ. وبعدَ دَقائقَ قَليلةٍ كانَ كُلُّ شيءٍ قَدْ اختفَى في بطنِ الأرضِ، ضَاعَ كلُّ شيءٍ، وغرقَ في الأرضِ كلُّ شَيءٍ: الكُنوزُ، والقُصورُ والجُنودُ، والخيلُ، والأتباعُ والأعوانُ... كلُّ شيءٍ اختفَى وخرجَتِ المياهُ من جَوفِ الأرضِ، وصنعَتْ بُحيرةً واسِعَةً عُرفَتْ في التاريخِ باسمِ: «بُحيرةِ قَارونَ»، وقيلَ: إنَّ مساحة قَصرِ قارونَ ومُلكَه كانَ باتِّساعِ هَذهِ البُحيرةِ الكَبيرةِ.

ولمَّا حلَّ بقارونَ ما حلَّ من الخسفِ وذهابِ الأموالِ وخَرابِ القُصور والدِّيارِ، ندمَ مَنْ كان يحسُدهُ على ما فيهِ

مِن نِعم، وراحَ مَن كانَ يتمنَّى مثلَ مَا أُوتي يُعاتبُ نفسَهُ، ويشكرُ ربَّهُ، ويحمدهُ أنَّهُ لَمْ يُؤاخذهُ بمَا كانَ يتمنَّى، وقَدْ أيقَنُوا أنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يُدَبِّرُ أمرَ عبَادِهِ بما يَشاءُ من حُسنِ التدبيرِ والتقديرِ، فقالُوا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

فكانَ في ذلكَ أكبرُ عِظةٍ، وأشَدُّ عبرةٍ لهُمْ، وهي كذلكَ لمن بعدَهُمْ، حتَّى يعلمَ المؤمنونَ أنَّ عزَّةَ اللهِ ليستْ في كثرةِ الأموالِ، ولا في نَعيمِ الدُّنيا الزائلِ، وأنَّ حُبَّ اللهِ لعبادِهِ لا يَرتبطُ بسَعةِ أرزاقِهِمْ أو قلتِهَا، وإنَّما رِضَا اللهِ في طاعتهِ سُبحانهُ وتعالَى، والقناعةِ بِما فيهِ الإنسَان، والتَّصدقِ والإنفَاقِ من المالِ عَلى الفقراءِ والمسَاكينِ، والعِلم بأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقَى.

قالَ تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

** ** **